

أهم المراكز التجارية والحضارية في بلاد السودان

اشتهرت كثير من المدن السودانية بالتجارة فقصدتها تجار الشمال بقوافلهم وبضائعهم لمقايضتها بالذهب والعييد، وقد ازداد عدد الأسواق وازدادت أهمية بعضها مع الزمن، ومنها:

أودغُشت: (بفتح الألف وفتح الدال وضم الغين وسكون الشين والتاء) وهي من قديمة موقعها في موريطانيا (حاليا)، لم يعد لها الآن وجود، سكانها هم قبائل صنهاجة ولمتونة (الملثمون)، وهي مدينة تتحكم في مدخل السودان المسمى بغانة، ولم تكن إسلامية النشأة.

قال عنها البكري "وهي بلد قائم العمارة مدينة كبيرة فيها أسواق ونخل كثير وأشجار الحناء... وكانت منزل ملك السودان المسمى بغانة قبل أن يدخل العرب غانة وهي متقنة المباني حسنة المنازل المسافة بينها وبين سجلماسة مسيرة شهرين وبينها وبين مدينة غانة خمسة عشر يوما"¹. لم تكن في مدينة أودغشت سلع هامة تنتجها بقدر مااهتمت بتجارة العبور، ولهذا السبب كان صاحبها يحافظ على توازن علاقاته مع الشمال والجنوب ويحمي المصالح التجارية مراعيًا استتباب الأمن والسلم.

كانت تابعة للحلف الصنهاجي بقيادة تين بروتان الذي جمعهم لمدة عشرين سنة، وبضعفهم ضمتها غانة، وفي القرن الخامس الهجري توحد الصنهاجيون من جديد تحت زعامة محمد بن تيفاوت، وهذا قبل قيام دولة المرابطين. ولم يدم هذا طويلا حيث عادت وبسطت غانة سيطرتها على أودغشت،² وقد تطورت المدينة عمرانيا نتيجة لنشاطها التجاري وازداد عدد العرب فيها ونقلوا لها الطابع الحضاري والاستقرار بعد ان كان سكانها يغلب عليهم طابع البداوة.

بلغت أودغشت أوج تطورها فيما بين 350 هـ و446 هـ في الفترة التي حكمها تين بروتان الصنهاجي. سيطر المرابطون على أودغشت في السنوات الأولى لقيام حركتهم، وتعد أودغشت التي تعد مخزنا لذهب السودان المتجه إلى سجلماسة، 446 هـ 1045م، تحكمتها في أهم طريق

¹ البكري، مصدر سابق، ج2. ص.862

² حسن إبراهيم حسن، مرجع سابق، ص. 216

تجاري، وقد يكون هدفهم تأمين القوة المادية لدولتهم، حرص المرابطون على توفير الأمن مما شجع الناس على التجارة.³

ترتبط أودغشت بتيهرت عبر طريقين صحراويين أولهما ينطلق من تيهرت نحو الغرب ليربطها جنوبا بغاو عبر سجلماسة ثم أودغشت وغانا، والطريق الثاني من تيهرت ليربطها كذلك بغاو عبر ورجلة فتادمكة مخترقا الهجار. لكن هذه الطرق ذهبت أهميتها بعد القرن 4هـ 10م وتحولت الطرق التجارية نحو الغرب لاسيما بعد هجرة القبائل الهلالية ومارافقها من اضطراب سياسي واقتصادي شهده المغرب الأوسط. وازدادت أهميته بعد استغلال ممالح تغازى في القرن 8هـ 14م.⁴

يرجع المؤرخون بداية تراجع أودغشت إلى مجي المرابطين في القرن 6هـ 12م، إذ عملوا على إضعافها، وبخاصة أن العلاقات بين غانا والمرابطين كانت متوترة.

تنبكتو: يعني اسم هذه المدينة (بئر بتكو) وقد جاءت هذه التسمية من المكان الذي اتخذته التطوارق مركزا للنتجاع بمواشيهم في فصل الجفاف وحوالي بداية القرن التاسع الميلادي حفروا فيها بئرا⁵، أما عبد الرحمن السعدي فيرجع تاريخ إنشائها إلى أواخر القرن الخامس الهجري، أنشأها طوارق مقشرن، وقد اتخذوها مركزا للنتجاع بمواشيهم وعهدوا لامرأة من إمائهم اسمها "بكتو" بحراسة البئر وتخزين وحفظ الأمتعة، فاختلط اسم المكان تين باسم المرأة بكتو فأصبح تين بكتو. لمكان ملتقى للتجار.

أول من تكلم عن تنبكتو هو السعدي حيث بسط الكلام عنها ووصفها بأنها مكانا للعابرين، ثم أصبحت مع الزمن يسكنون فيه، وكانت مساكنهم من زريبات الأشواك وبيوت من الحشائش، ثم تحولت إلى بناء الأسوار، بينما الوزان فيقول ا ناول من بناها هو منسا موسى. كبرت تنبكتو تدريجيا وفي القرن الرابع عشر ميلادي بنى فيها منسى موسى قصرا شيده له المهندس الغرناطي الحاج محمد السهلي، كما شيد مسجد دنقريز في سنة 1326، فانتقل إليها علماء

³ أحمد محمد إسماعيل أحمد الجمال، مرجع سابق، ص. 19

⁴ المرجع نفسه، ص. 40

⁵ عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، مرجع سابق، ص. 100.

ولاته.⁶ لقد أصبحت تنبكتو سوقا نافقة يقصدها التجار من المغرب الأقصى ومن طرابلس ومن مصر. وفي القرن الخامس عشر زارها الحسن الوزان وقال أنها مدينة عظيمة الشأن فيها كثير من الدكاكين المملوءة بالمنسوجات والكتب، وعدد كبير من الحياكين والحدادين والجزارين والخرازين. وفيها سوق واسعة يؤمها التجار من كل البلاد.⁷

بالإضافة إلى كونها مركزا تجاريا لتنبكتو ميزتان، الأولى مركزا لانتشار الإسلام في بلاد السودان والثانية أنها إحدى مراكز الثقافة العربية الهامة، ومن أشهر علماء هذه المدينة أسرة آقيت ومنهم احمد بابا التنبكتي، وعبد الرحمن السعدي ومحمود كعت، من العلماء الجزائريين الذين أقاموا بها محمد بن عبد الكريم المغيلي ويحي التادلسي ومخلوف البلبالي ويذكر عبد الرحمن السعدي حوالي 200 عالم قدموا لها من إمارات الهوسا وكانم والبرنو وتلمسان وفاس ومراكش وتونس والحجاز والأندلس.⁸

بدأت تنبكتو بالضعف في القرن السادس عشر لاسيما بعد الغزو المغربي، وهاجمها البدو الذين أصبحوا يشكلون خطرا عليها، وقامت دويلات صغيرة متناحرة، وفي القرن التاسع عشر زار تنبكتو الرحالة بارت فوجدها تحولت إلى قرية صغيرة .

جنى: تأسست جنى على أحد روافد نهر النيجر في حوالي سنة 494هـ (1100م)، يذكر السعدي أن ملكها "كنبرو" في حوالي سنة 1200 عندما عزم على الإسلام جمع كل علماء المملكة وكان عددهم 4200 عالم، ثم طلب منهم ان يدعو الله أن ينصر مدينته، ثم هدم قصره وبنى مكانه مسجدا.⁹

كانت جنى في القرن العاشر مدينة صغيرة يلتقي فيها التجار، وازدادت ازدهارا بازدهار تنبكتو القريبة منها، ومن منتصف القرن الثاني عشر أصبحت جنى ثالث مدينة من حيث الأهمية التجارية بعد تنبكتو وغاو. وقد كانت تأتيها الشرق والمغرب وأوروبا وتصلها في الغالب عن طريق تنبكتو، أما من الناحية الثقافية فتحتل المرتبة الثانية، وقد كان علماؤها وقضااتها محل احترام

⁶ يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص.194.

⁷ عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي، مرجع سابق، ص. 102

⁸ يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص196

⁹ حسن إبراهيم حسن، مرجع سابق، ص. 217

السلاطين¹⁰. وكانت تجبر السلطين على احترامها، فكلما مر عليها جيشهم فإنهم يلاقون قاضيها ويقدمون له الهدايا، يساعده على بناء مأوى للطلبة.

خضعت جنى لحكم سنغاي، واهتم بها المغاربة حينما سيطروا على المنطقة، كما خضعت لإمارة سيغو في سنة 1518، ثم تحت نفوذ الحاج عمر الفوتي، واحتلها الفرنسيون في سنة 1893.¹¹

كاغو (غاو): تأسست غاو على منحى نهر النيجر في القرن الثاني الهجري، استوطنها قبائل من بربر شمال إفريقيا التي أنجبت الزعيم أبا مخلد بن كيداد الملقب بصاحب الحمار، الذي تزعم ثورة الخوارج ببلاد المغرب.¹²

استوطن فيها آل ضياء ثم أصبحت عاصمة الأسقيين، فبلغت درجة كبيرة من الازدهار، وكانت تقصدها القوافل قبل القدوم إلى تنبكتو، وهي مركز تجاري مهم تتمر بها كل القوافل، ذكرها الإدريسي وقال أنها سيطرت على المناطق المجاورة واشتهرت بالخيل والجمال والأحمر، زارها الحسن الوزان ووصفها بالمدينة العظيمة.

ازدهرت غاو عمرانيا وكثر سكانها، وزارها العلماء منهم محمد بن عبد الكريم المغيلي في عهد الأسقيا محمد الكبير. استمرت غاو في الازدهار إلى أن سقطت على يد أحمد المنصور الذهبي في أواخر القرن السادس عشر الميلادي.

¹⁰ عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي، مرجع سابق، ص. 106

¹¹ المرجع نفسه، ص. 107

¹² يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص. 190